

ثانياً: ظاهرة البداوة، وخصائص المجتمعات البدوية:

1- الاهتمام بالأنساب:

يعد العرب من أكثر الأمم اهتماماً بآنسآبها وأصولها، وقد حفل التاريخ العربي بشواهد كثيرة تظهر اعتزاز العرب بآنسآبها. إن التوارث لحفظ الأنساب ونقآئها يعد من المفآخر التي يعتز بها الإنسان العربي بشكل عام، والإنسان البدوي بشكل آص بالعصور القديمة والحديثة. إذ لا حدود لاعتزاز البدوي بنقاء نسبه الذي يحرص عليه ويُعنى به. وقد ظهر في مختلف العصور القديمة والحديثة أشخاص يتميزون بمعرفتهم بالقبائل العربية، ولهم باع في حفظ الأنساب، يطلق عليهم النسآبون. وكانت المصادر المتعلقة بأصول الأنساب تتحصر بالحفظ الشفآهي ولم يظهر الجانب التوثيقي الكتابي إلا في منتصف القرن الثاني الهجري.

2- التقسيمات القبلية للقبائل والعشائر في كتب التاريخ والأنساب:

القبلية: تعبير يطلق على مجموعة بشرية ذات لغة أو لهجة مشتركة، بصرف النظر عن استقرارها على أرض ثابتة أو ترحالها من مكان لآخر. فالقبلية مجموعة بشرية متقلة أو مقيمة على أرض محدودة صحراوية في الغالب، بين أفرادها علاقات آاصة قائمة على التقاليد والأعراف المتوارثة. شكلت القبيلة الوحدة الأساسية في المجتمعات العربية في الجاهلية والإسلام، فكانت العصبية القبلية هي العنصر الأساس في آتماع وتكاتف القبيلة فيما بينها، كما كان الانتماء إلى القبيلة عنصراً من عناصر الحماية الفردية. فالفرد في القبيلة يزود عنها والقبيلة بدورها تدافع عنه، حيث قوة الفرد من قوة القبيلة. لقد هاجرت قبائل عربية بكآملها من الجزيرة إلى العراق وإلى بلاد فارس وما وراء النهر وإلى إفريقيا وقد استقرت هناك وحافظت على وحدتها القبلية وأصولها وجذورها. وعند تكوين الدول العربية في العصر الحديث، لعبت القبائل والعشائر دوراً أساسياً في تبلور شكل هذه الدول، فهناك قبائل أدمجت في الدول الحديثة الناشئة مثل سورية والعراق وفلسطين، وأصبحت جزءاً من المجتمع المستقر الحضري حيث أن المكونات الحضرية قوية بحكم وجود الأرض الزراعية وقوة تكوين المدني ووجود سلطة الدولة. وهناك قبائل سيطرت على قبائل أخرى لتؤسس دولة كبيرة كالمملكة العربية السعودية، وهناك قبائل تحولت إلى دويلات أو إمارات كالكويت، وقطر، والبحرين، والأمارات. يقول عالم الاجتماع الدكتور علي الوردي إن المجتمع العربي هو أكبر معين للبداوة في العالم، إن التناقض بين الحضارة

والبداوة كبير فإما أن نكون متحضرين أو نعود إلى الصحراء، فلا انتقاء ولا توافق ولا انسجام بين قيم الحضارة والبداوة. إن سمات البداوة هي - القبلية- الغزو- التفضل (الذي يشمل الكرم والسخاء والنخوة وغيرها).

أما الحضارة فهي على عكس ذلك تماماً إنها الدولة، العمل اليدوي، وعدم الاهتمام بقيم التفضل. فعلى الرغم من تزايد المدن وعدد سكانها إلا أن قيم البداوة ما زالت في دواخلنا إلى حد كبير.

3- تصنيفات البدو

3-1- تعريف البدو:

البدو الحقيقيون هم قبائل رحل أقحاح ومربو جمال، ينتقلون من موقع تتوافر فيه المراعي والمياه إلى آخر، حالما يقلع الموقع الذي تركوه عن تقديم الكأ والماء لقطعانهم.

البدوي هو ساكن الصحارى، التي لا تعني هنا صحارى الرمال فحسب، بل كذلك الصحارى الصخرية وصحارى السهوب، الصلبة الأرض غالباً، التي تغطيها خلال فصل الربيع الأعشاب والحشائش الزاهية، إذا كانت أرضاً غير جبسية. هذا الغطاء النباتي الفقير، الذي يجف فيما بعد كالجذور، يصلح علفاً لقطعان البدو. أما الماء فلا يوجد إلا في مواقع متفرقة، تبعد بعضها عن بعض أغلب الأحيان ساعات بل أياماً.

يعيش البدو على شكل قبائل وعشائر تنتقل في الصحراء بأسرها، أي في تلك المنبسطة العملاقة داخل بلاد ما بين النهرين وسورية والجزيرة العربية، حيث توجد مواقع رعي صيفية وشتوية محددة. ويشكل الترحال الدائم سبباً في الاحتكاكات والصدامات الحربية والغزوات المتواصلة بين البدو.

لا تختلف حياة البدو اليوم عن الحياة التي كان قد وصفها شعراء ومؤرخو العصر القديم. من جانبها، بقيت سهوب الصحراء هي ذاتها منذ آلاف السنين. وكذلك بقي البدو شعب أسياد، أصيلاً على الفطرة، بدائياً ومحارباً، لم تمسها الحضارة الأوربية بعد.

يفخر البدو أشد الفخر بحريتهم، ويمتلكون شعوراً جامحاً باستقلاليتهم. ولا يوجد ما يعلو في نظرهم على الحياة في الصحراء، مصدر احتقارهم لأي إكراه، وأية حكومة وضرائب، وللخدمة العسكرية، ومنبع نفورهم من الاستقرار والعمل المنظم.

يربى البدوي، منذ طفولته على الفروسية والقتال وعلى الصلابة والصمود تجاه سائر ضروب المشقات والآلام والأخطار. يعتبر الثأر أكثر قوانين الصحراء قدسية، وهو يمارس اليوم بالطريقة ذاتها التي كان عليها في الجاهلية. فمقابل القتل من قبيلة ما يجب أن يقتل شخص من القبيلة التي قتلتها. من الجائز أيضاً تقديم تعويض مالي يدفع غالباً في شكل جمال أو خراف.

مهما يكن من أمر، يحمل البدوي صفات حقيقية هي الإنسانية والفروسية والشهامة. يعتبر كرم الضيافة إحدى أجمل صفات البدو، وكذلك عادة تقديم الحماية حتى للعدو بمجرد أن يدخل خيامهم. ينظم البدو شؤونهم وفق قوانين الصحراء غير المكتوبة، فالقضاء يمارسه الشيخ أو قاض خاص، لكن أحكامها غير ملزمة. وإن كان أولئك الذين لا يرضخون لها، لا يستطيعون البقاء بعدها في القبيلة، بل يجب عليهم البحث مع عائلاتهم عن ملجأ لدى قبيلة أخرى، لأن القبيلة ليست فقط جماعة سياسية، بل هي أيضاً جماعة قضائية.

شيخ القبيلة هو قائدها، أما المشيخة فترتبط بأسرته، وتورث عادة من الأب إلى الابن، وإن كانت تنشأ غالباً عقب وفاة رأس القبيلة مآسي دامية بين أهل بيته. ويخاطب أبناء القبيلة الشيخ باسمه الأول. ويتمتع شيوخ مشايخ التحالفات القبيلة الكبيرة دون غيرهم بمهابة أميرية تقريباً لدى أبناء قبائلهم. من واجبات الشيخ قبل غيره اكرام الضيوف وعليه تقديم حق اللجوء لمن يبحث عن الحماية لديه.

تقتصر المهارات اليدوية لنساء البدو على غزل ونسج أقمشة خام، وخياطة قطع قماش تم شراؤها لصنع الثياب. أما الأدوات القليلة التي يحتاج البدو إليها (قدر، مقلاة، هاون، إبريق القهوة الكبيرة وفناجينها الصغيرة، الغليون والسرج.... وما شابه).

لا يبيع البدوي فرساً من أفراسه إلا على مضض، وهو يبيع بالمقابل الأحصنة التي يحتفظ عادة بعدد قليل منها فقط للتلقيح، تلعب الفرس دوراً كبيراً في حياة البدو فهي مناسبة للغزو أكثر بكثير من الحصان، لأنها هادئة لا تصهل وتعد أسرع منه وأكثر قدرة على الاحتمال.

3-2- البدو والبادية:

لقد ميز ابن خلدون ثلاث فئات من السكان، وهم: البدو، والأعراب والحضر. فالبادية ترتكز على القبيلة والترحال الدائم، أما الأعراب فهم تجمعات البدو المستقرين في قرى الأرياف والوحدات وقيمون نمط

انتاج زراعي، وهم نواة مرحلة انتقالية بين نظام البداوة والتحضر. إن التصنيف القبلي عند العرب مستمد في الأصل من القدرة الاقتصادية ونمط العيش، لا من التسلسل الدموي والأصول القبلية العريقة.

لا يوجد توصيف متفق عليه لدى الباحثين لتقسيمات البدو ومن هنا أجمل القول:

- بدو رحل (الأصلاء أو الأقحاح) ويسمون أهل الوبر، الذين يرعون الإبل فقط ويسمون أهل الأبل. إن القبائل الأصلية عند العرب، التي تحتل منزلة عالية هي التي تعيش أو كانت تعيش على رعي الإبل.
- البدو نصف رحل: الغنامة - شواوي - عرب الدار: تختلف التسمية للبدو نصف رحل من منطقة إلى أخرى، فيطلق عليهم الغنامة التي تعتمد فيها القبيلة على رعي الأغنام، أو يطلق عليها الشاوية (الشواوي) وهم نصف متحضرين فهم يعملون بالزراعة ونصف الرعي، ولديهم مساكن، ويقومون بعملية الرعي وبالأخص بالأغنام، ويسمون بعرب الدار أيضاً.
- فلح أو فلاليح: وهم مستقرون ضمن مجموعات قبلية وعشائرية ويقومون بعملية الزراعة.
- المعدان: وهم العشائر الموجودة في العراق الجنوبي والذين يربون الجاموس ويصيرون الأسماك ويقومون بزراعة بعض المحاصيل.

ثالثاً: أنواع الضبط الاجتماعي وطريقة تنظيم الحياة الاجتماعية:

الضبط الاجتماعي: هو تحقيق التوافق بين النظام العام للمجتمع والذي تصونه القوانين العامة للدولة، وبين سلوك الأفراد من أجل الحفاظ على السلم الأهلي وخلق مناخ منظم للنشاطات التنموية. في حين أن الضبط في المجتمع البدوي غالباً ما يكون بوسائل ذاتية مرتبطة بقيم وعادات وتقاليد وأعراف القبيلة.

1- المسؤولية والجزاء في مجتمعات البادية:

الجريمة التي تقع في مجتمعات البادية القبلية مسؤولييتها تطال كامل أفراد العشيرة بكاملها، أي هي مسؤولية جماعية لا تقتصر على مرتكبها فقط بل تطال كامل أفراد العشيرة. وذلك بحكم صلات القرابة ورابطة الدم والتي قد تصل إلى الجد الخامس وفق العرف القبلي. وهذا ما يولد جزءاً يعرف باسم (حق الثأر)، إذ يكون القصاص ليس من الجاني فحسب بل من أفراد القبيلة أو العشيرة كافة.

أ- الصور الجزائية العرفية التي تخص الحياة القبلية في البادية:

- اللعنة أو الذم: والغاية من هذا الجزاء التشهير بمرتكب الخطأ أو الجرم تمهيداً للتبرؤ منه، أو طرده خارج القبيلة، كجريمة الزنا أو السرقة. و إذا كانت الجريمة فيها قتل عمد وإساءة لهيبة القبيلة، قد تصل اللعنة إلى درجة إهدار دم الجاني.
- التأديب: وله وجهان: الأول: مادي يكون بالجلد أو الكي أو الرمي بحفرة لمدة من الزمن، وغالباً ما يكون هذا الوجه مع البسطاء والسفهاء. والوجه الثاني: معنوي بواسطة لعنه ومنع الآخرين من مصاحبته والجلوس معه، وغالباً ما يكون هذا الوجه مع ذوي المكانة في العشيرة.
- دفع الدية عن القتل والتعويض بالمال: ويعود ذلك إلى وجهاء القبيلة أو العشيرة مقروناً برضى أهل القتل، وغالباً ما يتبع ذلك جزاءً يقع على الجاني باللعنة والذم أو التأديب.

ب- الوسائل التي يتم فيها تقدير الجزاء وتنفيذه، وأقسام القضاء العرفي:

- القضاء البدوي: وهو نظام فقهي عرفي جرت عليه العادات والتقاليد القبلية، وهو عرف قبلي غير مكتوب، وقضاة الحكم غالباً ما يكونوا من العارفين الحافظين للعرف.
- المحاكم البدوية: التي تقوم بتقدير الحق والباطل، وحجم الضرر، والجزاء المناسب ومقدار التعويض، وطرق الدفاع عن النفس (أي التظلم)، وعدد الجلسات والإجراءات المناسبة لجميع المتخاصمين وتحديد الجاني وتقييده. والحكم يسمى (البشعة) أي التبرئة أو إيقاع الجزاء، والاستئناف يسمى (سوم الحق)، وهو مرهون بالطلب من المحكوم عليه وأن يوافق القاضي على الطلب، أن لا يكون الحكم قد صدر من قضاة الفطنة. وهناك نوع من أنواع الحكم القضائي القبلي لمجتمعات البادية يسمى (الدم المربع) وهذا الحكم إذا كان القتل امرأة، إذ لا يكفي بقتل القاتل فحسب وإنما يجب قتل ثلاثة رجال معه إذا كان الموضوع موضوع أخذ بالثأر من عائلة أو عشيرة القاتل.

ويقسم القضاء العرفي البدوي إلى أربعة أقسام هي:

- قضاة الفطنة: أحكامهم نهائية غير قابلة للاستئناف، وأحكامهم محل قياس لغيرهم من القضاة والنسخ عنها.
- قضاة المناهي: أحكامهم في قضايا العرض والدو، وأحكامهم قابلة للمراجعة والنقض.
- قضاة المعترضة: يختصون بتحديد أنواع القضايا، وإحالة القضية الى القاضي الأعلى المختص من قضاة الفطنة أو قضاة المناهي، وتجريد أطراف القضية من السلاح، وتلقي ضمانات مالية

تسمى بالرزقة والتي تؤول في نهاية القضية الى صاحب الحق بالقضية، واحضار الشهود ، وكذلك تقع عليهم مهمة تنفيذ الأحكام الصادرة عن قضاة الفطنة وقضاة المناهي. وحيثما يكون اختصاصهم يقع في المصالحة في الخصومات.

2- الجرائم وأنواعها لدى مجتمعات البادية:

- **القتل:** والقاتل يكون محل قصاص هو وأقربائه وعشيرته من قبل أهل واقرباء وعشيرة القاتل بواسطة عادة الثأر. وغالباً ما يرافق ذلك ثأر مضاة متبادل وقد تنزلق العشيرة الى حالة عداة مسلح طويل الأمد مع العشيرة الأخرى.
- **الأغتيال:** وهي طريقة في القتل يصاحبها محاولة إخفاء أثر الجريمة.
- **الأذية:** بقصد تشويه عضو من أعضاء جسم أحد الأشخاص، ودية ذلك نصف الرجل.
- **الزنا:** وعقوبة القتل للمرأة من اختصاص أهلها وليس القاضي. والزاني يقتل من عشيرته أو من أهل المرأة كنوع من حفظ العرض والثأر للشرف.
- **الخطف:** وهو شبيه بجريمة الزنا من حيث الأحكام والحالة المعنوية، اذ يكون موضوعها موضوع الشرف وانتهاك العرض ويتوجب حسب العادات القبلية الثأر للشرف وصون العرض.
- **قطع الجيرة:** وهي الاعتداء على المستجير بعد أن طلب الجيرة واعطاه إياها من أجاره، أي من طلب الحماية، ويتبع ذلك جزاءً مادياً كتعويض عن الضرر وجزاءً معنوياً بالنظر الى المعتدي على المستجير نظرة تشير الى تدني مكانته في مجلس الرجال لكون فعلته شائنة خرقت عرفاً قبلياً.
- **التجاوز على الدخيل:** ويختلف عن مفهوم قطع الجيرة بان الدخيل يكون عند الزعماء القبليين، بينما الجيرة تكون عند الأشخاص العاديين في القبيلة. وحكم الاثنتين (خرق الجيرة والتجاوز على الدخيل) واحد.
- **الغدر برفيق الدرب أو الطريق:** وتقاس العقوبة على قياس قطع الجيرة أو التجاوز على الدخيل إذا كان الغدر قد ألحق ضرراً مادياً أو معنوياً. أما اذا أدى الغدر الى القتل، فحكمه يكون على قياس جريمة القتل.
- **السحر الأسود:** أي مسؤولية أحد الأشخاص عن مصائب أصابت العشيرة، بواسطة طقوس معينة قام بها، اذا تكون عقوبته القتل.

- **الجنح:** (الجرح - نتف الشارب - الطعن بالعرض - الشتم - التعدي - السرقة - الخروج عن طوع الكبير سواء كان خروج ابن عن طوع ابيه أو خروج شخص عن طوع زعيم قبلي).
 - **صور من الضبط غير المألوفة انسانياً:** (كإجبار شخص متهم بقضية على مسك سكين محمي بالنار - أو جمرات نار متوهجة) - (اختبار المتهم بغير علم بما يختار على الاختيار بين شيئين واحد خبيث والثاني حميد ، وحسب اختياره يحكم عليه بالبراءة أو تثبيت التهمة).
- 3- سمات الحياة الاجتماعية في البادية:

تعد مجتمعات البادية من أكثر المجتمعات تأثراً بالبيئة الطبيعية والجغرافية، وضرورات الموائمة بين الظروف الصعبة ومتطلبات العيش، سواء بالتحمل لدرجات الحرارة المرتفعة وأشعة الشمس المحرقة في فصل الصيف أو الليالي المظلمة ورمال الصحراء، وللقمر والنجوم في حياة البدو معاني وقصص وخيالات كثيرة، وتعد القبيلة وعاداتها وتقاليدها ومعتقداتها مصدر قوة الفرد واستمراره. ومن عادات مجتمعات البادية حروب القبائل وإعلان الحرب بإنذار مسبق يسمى (المردود) الذي يذهب إلى القبيلة الأخرى ويعلمها بالرغبة في حسن النوايا والميل للصلح، وإن لم تكن الاستجابة حسنة يعلمها بإعلان الحرب.

ويتوزع الانتماء إلى تسلسل هرمي وفق النسب، إذ يبدأ هذا التسلسل بالبطن، الذي يتوزع الى أفاخذ، والفخذ يتوزع عشائر.

والجدير ذكره في الموضوع هي السمات التي تظهر مشتركات عدة في طبيعة الحياة الاجتماعية لمجمل قبائل مجتمعات البادية، من هذه السمات:

- 1- **الأسرة البدوية:** اذ يعيش أهل البادية في أسر وتجمعات كبيرة يغلب عليها رابطة الدم، ويتضامنون جميعهم في ما يخص التهديدات التي تطل بنية الأسرة وعاداتها، ومن ملامح بنية الأسرة تعدد الزوجات، والطاعة الزوجية، وكثرة الأولاد بهدف تقوية الأسرة وحمايتها.
- 2- **الزواج:** في الزواج البدوي يكون النسب مهم جداً، وكذلك الشخص الغانم (الميسور) ، وأيضاً توفر بعض الصفات الحميدة كالكرم وصلة الرحم، واحترام الكبير وغيرها. وللزواج طقوس قبلية خاصة في هذه المجتمعات والذي يسمى (زفة العروس).

3- خيمة العيش (بيت الشعر): وهي تمثل المسكن المتنقل (أثناء الإقامة في الترحال)، وهي مصنوعة من شعر الماعز، وان تعذر وجود شعر الماعز يتم مزجه بصوف الغنم أو وبر الإبل، ولذلك فإن خيمة العيش تسمى (بيت الشعر) وهي مقسومة الى قسمين رئيسيين، قسم للضيوف ويسمى (الربعة) وقسم آخر للمعيشة. يفصل القسمين الرئيسيين عن بعضهما قسم لنوم الزوجين يسمى (الزرب) وهو مصنوع من عيدان القصب مربوطة ببعضها البعض بواسطة خيوط صوفية ملونة، وفي طرف قسم المعيشة يوجد قسم آخر صغير مخصص للطبخ أو لحفظ مواد الطعام أو أدوات المطبخ ويسمى (زرب الكوزة)، وقد توجد بجوار بيت الشعر خيمة صغيرة قد تخصص لحفظ المونة وتسمى (العزبة).

انتهت المحاضرة